# الفكر الأسلوبي لدى عبد القاهر الجرجاني

د/ عبد القادر حمراني
جامعة حسيبة بن بوعلي — الشلف(الجزائر)

**الملخص:**

يحتلّ الإمام عبد القاهر الجرجاني بما دبّجه في كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز مكانة متميّزة في البحث الأسلوبي بفعل ما تميّز به من عمق في التنظير والتطبيق للدّرس البلاغي الحيّ وحسبه في ذلك أنّه واضع علمي المعاني والبيان، ومرسي دعائم نظرية النّظم التي شهدت له بعبقرية فذّة في الجمع بين العلم والفنّ والذّوق الرفيع. لقد أضفى هذا الألمعي على البحث البلاغي لمسات فنية عكسها منهجه التحليلي الجمالي الذي سعى من خلاله إلى استنطاق عوالم النّص وسبر أغواره للوقوف على خصائصه الأسلوبية المشحونة بألوان الانزياح الذي تتجلّى على إثره سمات المبدع الفارقة له عن غيره، وهو ما أكّدته الدراسات الأسلوبية المعاصرة حينما جعلت الأسلوب كاشفا لنمط التفكير عند صاحبه. وقد تعمّقت نظرته إلى الأسلوب الذي كان يعتبره " الضّرب من النّظم والطريقة فيه." وينفي أن يكون مرجع بلاغة الخطاب إلى اللفظ على حدة، أو إلى المعنى الغفل، أو إلى الصّوّر البيانية بمنأى عن مكانها من النّظم. إنّما مردّ ذلك إلى الأسلوب القائم على توخّي معاني النّحو وحسن التأليف بين الوحدات التي يجمعها حسن الصياغة والتحبير. ولتمثّل ذلك الأمر لابدّ من معرفة أسرار النّظم ودقائقه ووجوهه. وما يترتب عن نسق الخطاب من أثر في نفسية المتلقي. ولما كان قد حاز قصب السبق في هذا المجال، وجمع فأوعى، وأجاد فأفاد جاء هذه المحاولة لتكشف عن جانب هامّ من جوانب التفكير الأسلوبي الذي انطبع في أعماله التحليلية التي تعكس عقلا بديعا يشفعه حسّ مرهف، وذوق بلاغي أصيل عزّ أن نجد له نظيرا.

**المقال:**

عرفت الدّراسات اللغوية في التراث العربي تطوّرا نوعيا تجلّى في آثار كثير من جهابذة اللغة الذين حازوا قصب السبق في ميدانهم بفعل ما توصلوا إليه من أفكار رائدة ونظريات واعدة. ومن بين هؤلاء الذين كانت لهم قدم راسخة في هذا الشأن العلامة عبد القاهر الجرجاني الذي دفعه البحث عن مكمن الإعجاز في القرآن الكريم إلى بلورة نظرية النظم التي جلاّها في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وكان قد جهد وأجهد كثيرا لما جعل معرفة أسرار الإعجاز مرتبطة بمعرفة أسرار النظم، ودقائقه ووجوه المزية فيه. وقد انطوت أبحاثه في الحقل البلاغي على كثير من الرؤى الأسلوبية الرائدة التي استشرف من خلالها قضايا لم تكن معهودة. وطرق أبوابا ظلّت قبله موصدة. وبذلك يكون قد وسّع كثيرا من آفاق البحث البلاغي وأرسى دعائم معرفية لم يتم

استيعاب بعض منها بالقدر الكافي. وكانت دراسته لخصائص الكلام وأحواله والوقوف على وجه المزية فيه وإظهار لطائفه قد عكست ما لهذا الرجل من عمق نظر ودراية بأسرار البلاغة. فكان له أن استخرج خبأ الكلام، وحلّ مقفله، وراض الأشعار وما انطوت عليه من سمات حتى كشفت له اللغة عن سترها، وألقت بين يديه أسرارها.

وقد اعتمد في إصدار أحكامه على فكر ثاقب ونظر فاحص في أسرار التراكيب وما تقتضيه الصنعة العالية المتميّزة. وقد تضمّنت نظرية النظم في كثير من أصولها ما تقوم عليه الأسلوبية المعاصرة لأنّ عبد القاهر كان قد أكّد فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام في أوضاعه المختلفة وما يعتريه من ظواهر مختلفة كالتقديم والتأخير والحذف والذّكر والإضمار والإظهار، وما يبنى عليه من وجوه البيان والبديع. كلّ هذه المنبّهات الأسلوبية تتيح لصاحبها اصطفاء ما هو مناسب منها لفكرته، وعاكس لخصوصيته المنتظمة في بنى أسلوبية ذات أبعاد دلالية مرسومة وفق ما هو قائم في التمثلات الفكرية والوجدانية ومركوز في النفس الإنسانية التي تتجلّى بصماتها على صفحات المكونات التعبيرية وما تشحن به من طاقات إبداعية تتمظهر في أنماط أسلوبية منبجسة من رحم القيم الخلافية الفارقة بين أسلوب وآخر حيث نلمح وراء كلّ اختيار وتأليف تدبيرا وتقديرا تحدّد معالمه ظواهر أسلوبية تؤطّرها منحنيات العدول. ولو عدنا إلى ما بسطه عبد القاهر من تحليل وتعليل في باب علم المعاني لتأكّد لنا أنّ الرجل كان يتحدّث عن خصائص الأسلوب ومميزاته.

ولم يغب عن وعيه ذلك المفهوم وهو ينظّر للنظم ويرسي دعائمه، وهو بهذا العمل يكون قد فتح أبواب مسائل كثيرة، وأصّل لفكر أسلوبي ظلّ بحاجة ماسّة إلى دراسة وإثراء. ولنا أن نستحضر في هذا المقام بعض الأفكار الأسلوبية التي تعرّض لها عبد القاهر وهو يؤصّل لنظرية النظم ويرسي دعائمها نحو علاقة اللغة بأهلها. وما ترتّب عن ثنائية اللغة والكلام التي نادى بها دي سوسير واستفادت منها الأسلوبية في إرساء دعائمها الفكرية. وكذا ما عرفته ظاهرة العدول من اهتمام متميّز في الدراسات الأسلوبية.

لقد أدرك بفطنته العالية وحسّه اللغوي المرهف تلك الرابطة القوية بين نحو العربية وبين طبائع أهلها الذين صقلوها بأذواقهم وساسوها بما هو مركوز في طباعهم وقائم في نفوسهم حتى غدت وكأنّها قطعة قد قدّت منهم. ومدلول هذا القول أنّ أصول مباني الكلام قد قامت على أسس عقلية وثوابت فكرية أصّلتها منازع القوم في تصوّرهم وطرائق تفكيرهم ممّا استوجب ترتيب أنماط الكلام على هيئات مخصوصة تعكس ظواهر أسلوبية تتجلّى من خلالها مقرّرات ذهنية تنفرد بها

طبيعة الأمّة الواحدة عن غيرها. ويطال ذلك التفرد مسالك القول لدى أبناء اللغة الواحدة. وعلى هذا الأساس يكون عبد القاهر قد نبّه إلى علاقة الأسلوب بصاحبه وما يحمله من خصوصيات فكره التي تتجلّى في عملية التأليف بين الألفاظ التي نفرغ فيها معاني قلوبنا، ونجري عبرها خطرات نفوسنا.

وعلى إثر ذلك تنشأ رحم بين الكلام وصاحبه « ونَسَبٌ يَخْتَصّ بمتكلم، وفي ثبوت هذا الأصل ما تَعْلم به أنّ المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيتَ شعرٍ أو فصلَ خطابٍ، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحُكْمُ – أعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ مرتَّباً على المعاني المرتَّبَة في النفس، المنتظمةِ فيها على قضيّة العقل، ولا يُتَّصوَّر في الألفاظ وُجُوبُ تقديم وتأخير، وتخصُّصٍ في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتبُ والمنازلُ في الجمل المركَّبة وأقسام الكلام المدَّونة. »[1]

وهذا ما تذهب إليه الأسلوبية في بعض توجّهاتها التي ترى أنّ الكلام قطعة من صاحبه يعكس جانبا من أسلوب تفكيره، ويكشف عن كيانه، ويعبّر عن شخصيته التي تميّزه عن غيره. ولعلّه من المفيد الإشارة في هذا المقام إلى أنّ قيام اللغة العربية على قرينة الإعراب ودلالته على المعاني قد منحها إمكانات كبيرة في بناء الجملة وإخراجها ضمن وجوه شتى يتحرّر فيها المعنى من قيود الرتبة اللفظية ليرتسم تبعا لما هو قائم في النفس وماثل في الفكر. وهذا من شأنه أن يعمّق الفوارق الأسلوبية بين المتكلّمين بسبب الخيارات المتاحة للمتكلّم المبدع. وإذا كانت الأفكار قد تتماثل بين العقول فإنّ صوّر التعبير عنها لا تتطابق بين الأفراد لما في ذلك من أثر للخصوصيات الفردية في كيفية التعبير عنها وإخراجها المخرج المناسب لها، حيث تصطبغ بالذّاتية الأسلوبية التي تنطبع فيها معالم النفس المعبّرة. وهذا ما أكّده بعض الأسلوبيين من أتباع سوسير الذين رفضوا « اعتبار اللغة جوهرا ماديا خاضعا لقوانين العالم الطبيعي الثابتة إذ أنّها خلق إنساني، ونتاج للروح البشري، تتميّز بدورها كأداة للتواصل، ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر، فهي مادية صوتية، لكنها ذات أصل نفسي واجتماعي. »[2] الأمر الذي يترتب عليه التفرد الأسلوبي الذي يعكس خصوصية المبدع وسماته الفارقة له عن غيره. وكان عبد القاهر قد اهتدى إلى ما يمكن تسميته بالمعنى النفسي الذي نستشفّه من قوله:« ترتيب المعاني في النفس ثمّ النطق بالألفاظ على حذوها. »[3]

والجدير بالذّكر أنّ انبثاق تلك المعاني وانبعاثها في النفوس إنّما يكون على هيئات خاصّة، وصوّر متميّزة تتكاثر وتستفيض وتزخر كلّ نفس بما تزخر به منه، وهي مع هذه الكثرة، وهذا الفيض في تباعدها أو تقاربها لا تتطابق مطابقة تامّة تلغي كلّ الفوارق بل أنّها ستظلّ متميّزة عن

بعضها بعضا ولو بفارق دقيق.[4] فإذا كان المعنى مرتبطا بحدث التفكير فإنّ بناءه موصول بآلية التعبير التي تؤطّرها أنساق لغوية تجمعها مستويات لسانية تتواشج فيما بينها لرسم معالم الخصوصية الأسلوبية المجسّدة للتجربة الفنية. ولا شكّ أنّ استنساخ تلك المعاني النفسية في أنماط تعبيرية لا يتمّ بشكل بليغ إلاّ بمعرفة عميقة ودراية كافية بمعاني النحو وفروقه.كما أنّ الاهتداء إلى دلالة الهيئات الحادثة في التعبير قد تغمض على كثير من الناس لأنّ « من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال يحدث بسببها، وعلى حسب الأغراض والمعاني التي تقع فيها دقائق وخفايا لا إلى حد ونهاية، وأنها خفايا تكتم أنفسها جهدها حتى لا ينتبه لأكثرها، ولا يعلم أنها هي. وحتى لا تزال ترى العالم يعرض له السهو فيه، وحتى إنه ليقصد إلى الصواب، فيقع في أثناء كلامه ما يوهم الخطأ، وكل ذلك لشدة الخفاء وفرط الغموض.»[5]

والنحو بإمكاناته الواسعة يتيح للمتكلم مجموعة من الخيارات التي تمكنه من الإعراب عن غرضه، وتعينه على تجسيد صور فكره في قوالب شتى لبلوغ هدفه. « لقد أدرك عبد القاهر الجرجاني تلك الإمكانات النحوية والخيارات الأسلوبية الأمر الذي هداه إلى فكرة النظم التي يتسق فيها المبنى مع المعنى اتساقا تامّا بحسب مقتضيات علم النحو عند الإنشاء لإبراز المعنى في صورته التركيبية الكفيلة بتمثيله وتصويره تصويرا مجانسا للفكرة ومتجاوبا مع الغرض المنشود ، وهي في كلّ ذلك ترتب حسب مقصدية المتكلّم. وعند التحليل أيضا تكون مقتضيات النحو وسيلة لإدراك المعنى من خلال طريقة نظم الكلام والوقوف على حقيقة المعنى والغرض من الكلام الكامن وراء الشكل. وتلك وسيلة من الوسائل التي يتوسل بها المتلقي إلى استبانة المعنى و إدراكه. »[6]

وإذا كانت اللسانيات قد ركّزت في بعض أبحاثها على علاقة اللغة بالفكر وما يترتب عن ذلك من توليد وتحويل فإنّ الأسلوبية بوصفها أحد أفنان هذه الشجرة اللسانية جاءت هي الأخرى لترصد معالم الفكر المنطبع في الأسلوب. ومن ثمَّ فهي « تعنى بدراسة مجال التصرّف في حدود القواعد البنوية لانتظام جهاز اللغة. »[7] وتسعى إلى الاهتمام بالخصائص الفنية للأسلوب والملامح الدلالية التي تنجم عن أوضاع الكلم وذلك ما كان يلحّ عليه عبد القاهر وهو يشرح فكرة النظم القائمة على مراعاة الفروق التعبيرية بين التراكيب عبر آلية الاختيار والتأليف التي يسمو بها من مستوى الصّحة إلى مستوى الإبداع الجمالي الذي يعكس حيوية اللغة.

وقد غدت هذه الفكرة محلّ أنظار اللغويين حديثا. وهو ما عبّر عنه تشومسكي بقوله: « إنّ ما أصبح يمثّل اليوم النقطة المركزية التي تدور حولها كلّ الدراسات اللغوية الحالية، إنّما هو المظهر الإبداعي للغة، على مستوى الاستعمال الجاري العادي...إنّ كلّ الظواهر لتوحي بأنّ الذّات

المتكلّمة تخترع لغتها-بوجه من الوجوه- كلّما عمدت إلى التعبير عن نفسها، أو هي تعاود اكتشاف تلك اللغة كلّما سمعت الآخرين من حولها يتكلّمون بها، وكأنّما هي قد تمثّلت في صميم جوهرها المفكّر، نظاما متّسقا من القواعد، أو مجموعة منتظمة من القوانين التكوينية التي تحدّد بدورها التفسير السيمانطيقي ( الدلالي) لطائفة غير محدودة من العبارات الحقيقية، منطوقة كانت أم مسموعة، وبعبارة أخرى يمكن القول إنّ كلّ الظواهر توحي بأنّ الذّات المتكلّمة تملك ضربا من النحو التوليدي الذي يسمح لها بابتكار لغتها الخاصّة. » [8] وليست اللغة الخاصّة هنا سوى التصرّف في البني التركيبية الناجمة عن توخّي معاني النحو في الكلام. وفي طريقة تناوله تتجلّى خصوصية المبدع وسماته الفردية الفارقة له عن غيره. وهذا ما تركّز عليه الأسلوبية في تعاملها مع النصوص الإبداعية التي يطغى عليها التفرّد الأسلوبي، وتتجلّى فيها محاسن النظم ومزاياه.

ثمّ إنّ المتتبع لأصول نظرية النظم يقف على حقيقة مفادها أنّ هذه النظرية قد بنيت على أسس لغوية دقيقة محكمة قوامها اللغة والكلام، وقد اقتضت طبيعة البحث البلاغي أن يكون الكلام محور حديث الجرجاني لأنّ البلاغة تركّز على ما ينجزه المتكلّم بصفة فردية عبر التصرف في عناصر النظام اللغوي تبعا لمقاصده وأغراضه. وقد استلزمت طبيعة البحث في عملية النظم الحديث عن اللغة والتمييز بينها وبين الكلام لما لهذه الفكرة من تعلّق بنفي المزية عن الألفاظ قبل « قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة. » ولاشكّ أنّ هذا الموقف ينمّ عن فهم عميق للتحوّل الذي يلحق الألفاظ حين تصاغ في المحور التركيبي حيث يصبح المعنى غير محصور فيما كانت تدلّ عليه تلك الألفاظ وهي بمعزل عن التركيب. حيث أنّها تكتسب معنى جديدا لا وجود له خارج نظمه وسياقه. ولا شكّ أنّ واضع الكلام ومجريه في سلسلة التركيب هو أشبه ما يكون « بمن يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة. »[9]

ومن هذا المنظور يكون النظم شديد الصلة بصاحبه كونه وليد قواه المدركة الفاعلة في كيانه وفي مقدّمتها العقل. وبهذا يكون الجرجاني قد أشار « إلى أصل من أهمّ أصول الوحدة المنطقية، فقسم للعقل مكانا في العمل الفني، وجعله هاديا لوحدة النسق في ترتبه على صورة تتلاءم وقوى الإنسان العاقلة والمتذوّقة. »[10] وقد أكّد الجرجاني هذه الفكرة في غير ما موضع من ذلك قوله:« ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. »[11]

وإذا كان الجرجاني يلحّ على أنّ النظم « هو توخي معاني النحو في معاني الكلم، وأن توخيها في متون الألفاظ محال. »[12] فإنّ الذي ينبغي أن يصار إليه أنّ معاني النحو ليست كامنة في الحركات الإعرابية التي تلحق أواخر الكلم، لأنّه لا يتصوّر أن يقع التفاضل في معرفة الحركة الإعرابية وبالتالي فهي لا تكتسي قيمة أسلوبية ذات مزية كونها مجرّد علامة في عقد نظمي عميق. وفي هذا يقول:« لم يجز إذا عدت الوجوه التي تظهر بها المزية أن يعد فيها الإعراب، وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالروية. فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع، أو المفعول النصب، والمضاف إليه الجر بأعلم من غيره، ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر، إنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز كقوله تعالى: " فما ربحت تجارتهم".»[13] والذي يجب فهمه من هذا الكلام أنّ النحو عند الجرجاني هو « صنو الحسّ اللغوي المرهف وإدراك الفروق بين طرائق التركيب ووجوه ترتيب المباني على المعاني، وصَنعة تدرك بثاقب الفهم والفِكَر اللطيفة لا جملة من المصطلحات والأبواب تحفظ عن غير رؤية. »[14]

ومن القضايا الأسلوبية التي صال وجال فيها فكر الجرجاني قضية اللفظ والمعنى التي خالف فيها سابقيه ومعاصريه ممّن تشيّعوا للّفظ أو انتصروا للمعنى حيث وقف موقفا مباينا لكلّ منهما. وكان مذهبه في ذلك مشابها لما نصّت عليه الأسلوبية التي تنظر إلى النصّ على أنّه كيان لغوي واحد في شكله ومضمونه، وبالتالي فإنّه لا مجال للفصل بينهما، أو البحث في أحدهما بمعزل عن الآخر خلافا لما عرفت به البلاغة العربية في بعض مراحلها حيث ميّزت بين الشكل والمضمون على أساس البحث فيما يعرف بقضية اللفظ والمعنى. وقد يكون لتأثّر بعض البلاغيين بالمنطق، ومحاولة الربط بين المصطلحات المنطقية ومثيلتها اللغوية أثر في هذا التمييز التفاضلي.[15]

واللافت للنظر في هذا الأمر أنّ عبد القاهر لم يكن متشيّعا لأنصار اللفظ ولا لأنصار المعنى، بل أنّه سعى إلى دحض حجج كلا الفريقين. فهو لا يرى مكمن البلاغة في اختيار الكلمات، وأنّ الفضيلة لا ترجع إلى الألفاظ لذاتها مثلما يزعم دعاة هذا الرأي الذين « فخموا شأن اللفظ وعظموه حتى تبعهم في ذلك من بعدهم، وحتى قال أهل النظر: إن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ. فأطلقوا كما ترى كلاماً يوهم كل من يسمعه أن المزية في حاق اللفظ. » [16]ودليله على ما ذهب إليه في دحض هذه الفكرة «أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر. »[17] وكما أبطل مزاعم أنصار اللفظ فإنّه دحض حجج أنصار المعنى باعتبار أنّه « محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن

تنظر في مجرد معناه. »[18] وكان رأيه الجمع بين اللفظ والمعنى من غير تحيّز لأحدهما. « فإذا كانت الألفاظ هي التي تبرز المعاني وتظهرها وتنقلها من ذهن قائلها وفكره إلى حيّز الوجود، فإنّ المعاني هي ما يستخلص من عملية انتظام المفردات في هيئتها المعلومة. »[19]

وبهذا يكون عبد القاهر قد ألّف بين الشكل والمضمون ورفض مبدأ الفصل بينهما أو تفضيل أحدهما على الآخر. بناء على أنّ الأسلوب هو مركب فنّي لجملة من العناصر المنصهرة في ذات المبدع وشخصيته. وهذا الذي كان قد قرّره هذا الألمعي سابقا هو ما ذهبت إليه الأسلوبية التي تنظر إلى النصّ باعتباره كيانا واحدا ولا سبيل إلى دراسة الأثر الأدبي إلاّ في إطار من التداخل والتكامل بين تلك المكوّنات.

إضافة إلى ما سبق ذكره يمكن القول بأنّ أبرز ظاهرة أسلوبية شغلت بال اللغويين حديثا والمتمثّلة في ظاهرة العدول كان عبد القاهر قد تعرّض لها بالدّراسة والتحليل مبرزا خصائصها الفنية وما تنطوي عليه من طاقات تعبيرية وشحنات إيحائية. حيث بيّن بأنّ البنية الأصلية للجملة العربية تعتريها عوارض شتّى تعدل بها عن أصلها المفترض لأغراض يتطلبها المقام، وتوجّهها مقاصد الكلام. ولا ترد هذه العوارض إلاّ لتقرير فكرة وإضافة معنى لاسبيل إليه من دونها. وما ذاك إلاّ لأنّ معنى الكلام مرتبط بترتيب أجزائه، وطبيعة أوضاعه.

وقد شكّلت هذه الظّاهرة سمة أسلوبية بارزة المعالم لها قيمتها الدّلالية وثقلها الأسلوبي المتميّز. وممّا هو معلوم أنّ الأسلوبية لم تكتف بالوقوف عند حدود الجمل والتراكيب التي يلحقها العدول، بل أنّها ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير حينما جعلت الأسلوب صورة لصاحبه، وكاشفا لنمط تفكيره، ومعبّرا عن شخصيته التي يتميّز بها عن غيره. ومن ثمّ يكون الأسلوب ذاتيا تتجسّد فيه خصائص صاحبه. وهذا ما حدا ببيفون إلى القول بأنّ: « الأسلوب هو الرجل. »[20]

وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى الأسلوبيين الذين آمنوا بها أمثال شوبنهاور الذي يرى بأنّ الأسلوب يعكس ملامح الفكر وماكس جوب الذي يقول:« إنّ جوهر الإنسان كامن في لغته وحساسيته.»[21] ولعلّ هذا التوجه مبني أساسا على أنّ عملية انتقاء الوحدات اللغوية وطريقة تركيبها والتأليف بينها، وبخاصة في العمل الإبداعي تعكس طريقة تفكير صاحبها وأسلوب نظمه للتراكيب التي تنشأ نتيجة « استعمال خاص للغة يقوم على استخدام عدد من الإمكانات والاحتمالات المتاحة، والتأكيد عليها في مقابل إمكانات واحتمالات أخرى.»[22] يتأتى هذا بسبب ما تنطوي عليه اللغة من طاقات تعبيرية خلاّقة. و ما توفّره من وسائل العدول في شتى أشكاله التي تخرج بالعبارة عن النمط المألوف متخطية حدود الرتابة إلى فسحة التشكّل الحرّ

المفضي إلى الخصوصية المحققة للمسات الإبداع. والمشكّلة للخاصية الأسلوبية التي هي « نوع من الخروج عن الاستعمال العادي للغة، بحيث ينأى الشاعر أو الكاتب عمّا تقتضيه المعايير المقرّرة في النظام اللغوي.»[23]

و يتخذ تودوروف من العدول ركيزة أساسية لتعريف الأسلوب حينما يقرّر بأنّ اللغة تتشكّل من ثلاثة مستويات: المستوى النحوي، والمستوى اللاّنحوي، والمستوى المرفوض ويخصّ الأسلوب بالمستوى الثاني الذي يجنح فيه المنشئ إلى لغة الإبداع والإمتاع بعيدا عن الرتابة والعبارات الجاهزة المألوفة التي مجّتها الأسماع، ونفرت منها الطباع.

أمّا ريفاتير فينظر إلى العدول على أنّه : « انزياح عن النمط التعبيري المتواضع عليه.»[24] ويتمّ ذلك عن طريق تضمين الكلام ما ندر من الصيغ والتراكيب مما هو ملفت للانتباه وخارج عن سلطة المعيار ضمن سياق أسلوبي يعرّفه بأنه:« نموذج لساني مقطوع بعنصر غير متوقع والتناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبه الأسلوبي.»[25] وبهذا يمكن القول إنّ العدول يهدف إلى خلق أوضاع جديدة في اللغة قائمة على الكسر غير المتوقّع في منطق الإسناد الذي ينحسر فيه المألوف، ليفسح المجال واسعا أمام حرية الإبداع وحيوية اللغة وتكاثرها بعيدا عن الرتابة وسلطة التقليد. فالأديب المبدع يبتكر علاقات إسنادية من شأنها أن تسترعي انتباه القارئ وتجبره على فهم تلك اللغة التي تتسم بخصائص أسلوبية محدثة.

و يرى ريفاتير أنّ المرتكزات الأسلوبية لها دور تأثيري فعّال لدى المتلقي ذلك أنّ « إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام ، ودفع القارئ إلى الانتباه إليها بحيث إذا سها عنها شوّه النصّ وإذا ركّز عليها وحلّلها وجد لها دلالات تمييزية خاصّة. ممّا يسمح بالقول إنّ الكلام يعبّر والأسلوب يبرز.»[26]

لقد بيّن عبد القاهر وهو بصدد شرحه لفكرة النظم أنّ الفكر لا يتعلّق بمعاني الكلم المفردة مجرّدة من معاني النحو وأحكامه ممّا يوجب الفاعلية أو المفعولية أو التعريف أو التنكير أو الإضمار أو الإظهار أو التقديم أو التأخير أو الحذف وما إلى ذلك من أنواع العدول التركيبي وما يقابله من عدول دلالي ناجم عن أصناف المجاز وما يلحق به من استعارة وكناية وكلّ ما يعدّ من مقتضيات النّظم. ولاشكّ أن توظيف هذه الآليات هو من يلحق العدول بالجملة ويخرجها عن أصلها. والذي يستوقفنا في هذا الشأن هو أنّ عبد القاهر لا يقف عند ظواهر المعاني التي يقصد إليها المتكلّم، بل أنّه يكشف عن الآليات التي يتحقق بها العدول وتعظم بها المزية التي لا تكمن في

أنفس المعاني التي يقصد إليها المتكلّم، ولكن في كيفية إثباته لها، وتقريره إيّاها، و ممّا ساقه كمثال لهذه الفكرة قول ابن المعتزّ:

**سالت عليه شعاب الحي حين دعا ... أنصاره بوجوه كالدنانير**

حيث بيّن أنّ « هذه الاستعارة، على لطفها وغرابتها، إنما تم لها الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير. وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. »[27] والجرجاني كثيرا ما يربط وجه المزية في الكلام وروعة نظمه بخروجه عن الأصل المفترض وعدوله عنه إلى ما هو أبهى وأبهج، على نحو ما نبّه إليه من مزايا في قول إبراهيم بن العباس:

**فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغاب نصير**

**تكون عن الأهواز داري بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور؟**

**وإني لأرجو بعد هذا محمداً ... لأفضل ما يرجى أخ ووزير**

« فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة، ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو إذ نبا على عامله الذي هو تكون. وأن لم يقل: فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر. ثم أن قال: تكون ولم يقل: كان، ثم أن نكّر الدهر ولم يقل: فلو إذ نبا الدهر، ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد. ثم أن قال: وأنكر صاحب ولم يقل: وأنكرت صاحباً. ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عددته لك، تجعله حسناً في النظم، وكله من معاني النحو كما ترى. »[28]

هذا العدول الذي ترتب عن التقديم والتأخير والتنكير أو الحذف يمثّل جزءا من معاني النحو التي تتيح للمتكلّم التصرّف في التراكيب ونسجها تبعا لفكره وطبعه وما تقتضيه الفكرة من رسم للمعنى وإخراجه المخرج اللائق بالفكرة عبر آلية العدول عن الأصل التي تعدّ الركيزة الأساس في نظرية النظم. وقد مثلت هذه الفكرة أعني ظاهرة العدول" *L'écart* " واسطة العقد في الدراسات الأسلوبية ، وتصدّرت طليعة المباحث التي تعنى بها الأسلوبية في تعاملها مع النصّ. ويتمثل ذلك الإجراء في رصد مستوى العدول الذي يعتري الكلام ويصرفه عن نسقه المثالي، وهو ما يسميه جون كوهين بالانتهاك الذي يحدث في الصياغة فيوسم به الأسلوب. « بل ربما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته، وما ذلك إلا لأنّ الأسلوبيين نظروا إلى اللغة في مستويين، الأول: مستواها المثالي في الأداء العادي، والثاني: مستواها الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها.»[29] ومدلول هذا الكلام أنّ الأسلوبية تفرّع اللغة إلى مستويين اثنين: يمثّل

الأوّل منهما النمط التعبيري المألوف والمتعارف عليه، وهو ما يطلق عليه أصل الكلام عند البلاغيين. وثانيهما هو الذي يعدل عن المستوى الأوّل إلى النمط الإبداعي وهو مجال عناية علم الأسلوب الذي يركّز على دراسة وتحليل « ما ندر ودقّ من خصائص الخطاب التي تبرز عبقرية الإنسان وبراعته فيما يكتب أو يلفظ.»[30] وهي بذلك تنظر إلى الأسلوب على أنه مجموعة من أشكال العدول التي تجسّدها مختلف التراكيب اللغوية في نسيج النصّ. وربّما كان ذلك العدول هو الأسلوب نفسه بالنظر إلى ما يحمله من شحنات تعبيرية خاصّة ومميزة لصاحبها عن غيره. من هذا المنظور فسّر البحث الأسلوبي بأنه علم الانزياحات أو الانحرافات *sciences des écarts* كونه أبرز سمة في العملية الأسلوبية. «ولعلّ احتلال ظاهرة العدول لهذه المكانة في الدراسات الأسلوبية يرجع أساسا إلى ما تمثله من نتوءات أسلوبية، وتحوّلات تعبيرية تنطوي على شحنات دلالية، وأبعاد تأثيرية، وإشراقات فنية جمالية. وقد حظيت باهتمام الأسلوبيين الذين رأوا فيها جوهر الأسلوب وخصوصيته بل هوية المبدع وسماته الفارقة له عن غيره. فالخصوصية الأسلوبية التي تتشكل أصلا من مجموع الظواهر والأنماط التعبيرية التي يؤثرها الناظم أو الناثر تعكس تفرده الفكري ونسقه التعبيري الذي ينطوي على خصائصه النفسية والشعورية. »[31]

ولما كانت حصّة العدول في الدراسات الأسلوبية آخذة بحظّ وافر منها و كان مصبّ اهتمام علم الأسلوب كامنا في دراسة التحولات الأسلوبية والوقوف على تلك النتوآت التي تحمل شحنات دلالية مميزة ذات قوة تأثيرية، فقد عرّفه بعضهم بأنّه علم الانحراف. وقد مثّلت فكرة العدول في الدراسات الأسلوبية المعاصرة عصب البحث الأسلوبي بناء على أنّ الأسلوب « هو الاستعمال العاطفي المنحرف باللغة، فإذا كانت اللغة تعتمد العقل والمنطق في التعبير فإنّ العبارة تعتمد العاطفة والوجدان في نقل الشعور البشري بثّا، وفي التأثير فيه تلقيا. وهكذا نشأت الأسلوبية على أساس العدول عن الاستعمال العقلي الذي توفّره اللغة إلى الاستعمال العاطفي الذي توفّره العبارة.»[32]

وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ قياس درجة العدول في الأثر الأدبي تتم على أساس المنظومة اللغوية المجرّدة في العقل الجمعي مقابل ما تشحن به هذه الأخيرة – اللغة– من عواطف وخصوصيات فردية في مختلف وجوه الاستعمال التي تمثّل خروجا عن النظام الأصلي للغة.

وقد اهتم علم الأسلوب بتوصيف الخصائص التركيبية في الأعمال الأدبية بصفة خاصة إذ من مهامه « أن يحدّد المدى والكيفية اللذين تكشف فيهما لغة الشاعر عن ملامح منحرفة *deviant features* ، وأن يلاحظ كيف يستخدم الأديب الملامح أو السّمات المتعارف

عليها بصفة عامّة لإحداث تأثير خاصّ.»[33] وهذا ما كان يسعى عبد القاهر إليه باستمرار عند تحليله للنصوص الشعرية ذات الشحنات التأثيرية التي يجد لها المرء مزية وأريحية، بسبب ما تحمله من معنى وجداني يقع من المرء في فؤاده، أو استنتاج فكري يقتدحه العقل من زناده.

**خلاصة:**

وجملة القول فيما سبق ذكره أنّ عبد القاهر الجرجاني قد استطاع أن يستوعب ثقافة عصره وما نهله من علوم لكبار النحويين واللغويين ويصوغ فلسفته البلاغية التي تدور في مجملها حول خصائص الأسلوب وبلاغته. وقد كانت له مهارة عالية وذوق رفيع في فهم نواحي الجمال ولمح أسراره في فنّ القول فلم يقف عند ظواهر الأشياء ممّا يعتري الجملة من تقديم وتأخير وذكر وحذف وإضمار وإظهار وتعريف وتنكير. ولا ما تدبّج به من استعارة أو كناية بل تجاوز ذلك كلّه ليكشف عن وجوه المزية وما توخى فيها الناظم من معاني النحو التي هي من مقتضيات النظم. ثمّ إنّ تحليل عبد القاهر لكثير من النصوص الفنية بغية إظهار وجه المزية فيها وما لها من قيمة فنية هو نوع من دراسة الأساليب وتمييزها بالنظر إلى أصناف العلاقات الأسلوبية القائمة على معاني النحو وامتزاجها بأصناف المجاز التي تشكّل عناصر الصياغة التعبيرية ومقوّماتها الفنية. وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ عبد القاهر قد تبوّأ منزلة مرموقة في الدراسات البلاغية والأسلوبية بفعل ما دبّجه في كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من ظواهر لغوية وأسلوبية ذات خصائص فنية وملامح دلالية دقيقة عبّروا عنها بالأسرار البيانية وهي ناجمة أساسا عن ظواهر العدول التي هي من أهمّ مباحث الأسلوبية.

لقد أضفى هذا الألمعي على البحث البلاغي لمسات فنية عكسها منهجه التحليلي الجمالي الذي سعى من خلاله إلى استنطاق عوالم النّص وسبر أغواره والغوص على خصائصه الأسلوبية المشحونة بألوان الانزياح الذي تتجلّى على إثره سمات المبدع الفارقة له عن غيره، وهو ما أكّدته الدراسات الأسلوبية المعاصرة حينما جعلت الأسلوب كاشفا لنمط التفكير عند صاحبه. وقد تعمّقت نظرته إلى الأسلوب الذي كان يعتبره " الضّرب من النّظم والطريقة فيه." وينفي أن يكون مرجع بلاغة الخطاب إلى اللفظ على حدة، أو إلى المعنى الغفل، أو إلى الصّوّر البيانية بمنأى عن مكانها من النّظم. إنّما مردّ ذلك كلّه إلى الأسلوب القائم على توخّي معاني النّحو وحسن التأليف بين الوحدات التي يجمعها حسن الصياغة والتحبير. وكان دافعه إلى ذلك هو استظهار ما به وقع الإعجاز في القرآن العظيم ولتمثّل ذلك الأمر لابدّ من معرفة أسرار النّظم ودقائقه ووجوهه. وما يترتب عن نسق الخطاب من أثر في نفسية المتلقي؛ لقد جمع فأوعى، وأجاد فأفاد، وهو بهذا

الإنجاز " يعدّ أوّل باحث عن بلاغة الأسلوب وألوانه وخصائصه أو ليس في ذلك كلّه ما يجعلنا نجزم جزما قاطعا بأنّ بين الأسلوبية وفكر عبد القاهر الجرجاني في النظم صلة قوية وعلى الصلة المباشرة بين الأسلوبية وخصائص البلاغة العربية."[34]

لقد كان عمله نتاج ذوق أسلوبي صقله اطّلاع واسع وتفكير عميق في كنه اللغة. ولم يكن فكره تقليدا لمذهب أو اجترارا لأحكام سابقة إنّما كان استثمارا لبذور فكرية بلاغية وتأصيلا جديدا لأفكار أسلوبية رائدة غذتها موهبة فنية راقية. ومن يقرأ دلائل الإعجاز بعين الإنصاف لا يماري في الاعتراف بفضل عبد القاهر في تعميق النظر في الأسلوب وخصائصه. وهو ما يكشف عن جانب هامّ من جوانب التفكير الأسلوبي الذي انطبع في أعماله التحليلية التي تعكس عقلا بديعا يشفعه حسّ مرهف، وذوق بلاغي أصيل عزّ أن نجد له نظيرا. لقد خلع على البحث البلاغي من لطائف فكره، ونفائس علمه ما أهّله لأن يكون سابقا لعصره، ورائدا في دربه.

**هوامش البحث:**

---

-[1] أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر العربي، بيروت، ط:01، 1999م،ص:06

[2]- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،.صلاح فضل، دار الآفاق الجديدة،بيروت، لبنان، ط:01، 1985م، ص:10.

[3]- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1981م،ص:41

[4]- ينظر دراسة في البلاغة والشعر، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة،ط:01، 1991م، ص:72.

[5]- دلائل الإعجاز:220-221.

[6] - العدول عن الأصل غي تراكيب اللسان العربي وتطبيقاته في القرآن الكريم، عبد القادر حمراني، رسالة دكتوراه جامعة الجزائر، ص:78.

[7]- محاولات في الأسلوبية الهيكلية، ريفاتير،ترجمة دولاس، الدار البيضاء، المغرب، ص:273.

[8]- نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن، المجلس الأعلى للثقافة، دمشق، سوريا، ط:01، ص:75.

[9] - دلائل الإعجاز:50

[10] - المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، السيد أحمد خليل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1968، ص:58

[11] - دلائل الإعجاز:38
[12] - المصدر نفسه:197
[13] - المصدر نفسه:302
[14] - التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط:03، 2010م، ص:458
[15]- ينظر الأقصى القريب في علم البيان للتنوخي، مطبعة السعادة، ط:01، ص:702.
[16]- دلائل الإعجاز:21
[17]- المصدر نفسه:16
[18]-المصدر نفسه:197
[19]- فتح الله سليمان، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية،دار الآفاق العربية، ط:01، 2008م، ص:33
[20] - ينظر الأسلوبية والأسلوب، المسدي :30-63. وكذا الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط:12، 2003م.ص :134
[21] - المرجع السابق :63.
[22] - الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط:03، 1423هـ . 2002م. ص :49.
[23] - التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستيطيقا )، لطفي عبد البديع، دار المريخ للنشر، الرياض، 1409هـ - 1989م. ص: 139.
[24] - الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي:82.
[25] - معايير تحليل الأسلوب، مكائيل ريفاتير، ترجمة وتعليق :حميد لحمداني، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط:01. 1993م، ص:56.
[26] - - *Essais de stylistique structurale. Riffaterre Michaël. Paris, éd. Flammarion, 1971 . p : 31.*
[27] - دلائل الإعجاز:30
[28]- المصدر السابق:26
[29]- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط:01، 1994م، ص:268 .
[30]- الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي:56.
[31]- العدول عن الأصل في تراكيب اللسان العربي وتطبيقاته في القرآن الكريم، عبد القادر حمراني، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، ص:59-60.
[32] - فكرة العدول في البحوث الأسلوبية المعاصرة، عبد الله صولة، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية الدار البيضاء، عدد:01، 1987م ص:74.
[33]- نظرية اللغة في النقد العربي عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، 1980م، ص:481.

[34]- الأسلوبية والبيان العربي، محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف، الدار المصرية اللبنانية، ط:01، 1992م، ص: 07